مجلة الرائد

العدد : ٢١٠ الموافق في صفر ١٤٢٠ هجري ٦ / ١٩٩٩ ميلادي

مدرسة فقه القلوب : عروة بن الزبير	بقلم : أبوعدنان

شهد العلماء المحققون أن عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما كان من أبرز علماء جيل التابعين ، العاملين بعلمهم في الرخاء والشدة ، والناشرين له بين الناس ، يقول محمد بن سعد : " كان عروة ثقة ، كثير الحديث ، عالماً ، مأموناً ثبتاً " ويقول العجلي : " مدني تابعي ، رجل صالح لم يدخل في شيء من الفتن " وينقل ابن كثير في « البداية والنهاية » قول الواقدي في عروة رحمه الله : " كان فقيهاً عالماً ، حافظاً ثبتاً حجة ، عالماً بالسيّر ، وهو أول من صنف في المغازي ، وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر " وقال عمر بن عبد العزيز : " ما أعلم أحداً أعلم من عروة " . قال ابن كثير : " ذكره غير واحد في فقهاء المدينة السبعة الذين يُنتهى في قولهم ، وكان من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم في زمن ولايته على المدينة " . ونختم شهادة العلماء في عروة رحمه الله تعالى بقول الإمام الجليل الزهري : " كان عروة بحراً لا ينزف ولا تكدره الدلاء"

ولا يستغرب هذا العلم الكبير وهذا الالتزام الحازم من رجل تربى في كنف أحد المبشرين بالجنة الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وأشرفت على تنشئته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وتولت خالته الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تعليمه وتأديبه ، ومن ذلك دفعه إلى مجالس العلماء ، روى مسلم هذه القصة المعبرة : (عن عروة بن الزبير قال : قالت لي عائشة : " يا ابن أختي ، بلغني أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج ، فالقه فاسأله ، فإنه قد حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً " . قال : فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله ﷺ . قال عروة : فكان فيما ذكر أن النبي ﷺ قال : " **إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً ، ولكن يقبض العلماء ، فيرفع العلم معهم ، ويُبقي في الناس رؤوساً جهالاً يفتونهم بغير علم فيَضلون ويُضلون** " . قال عروة : فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته . قالت : أحدثك أن النبي ﷺ يقول هذا ؟! . قال عروة : حتى إذا كان قابلٌ - أي العام التالي - قالت له : إن ابن عمر قد قدم المدينة ، فالقه ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم . قال فلقيته فسألته ، فذكر لي نحو ما حدثني به في مرته الأولى ، قال عروة : فلما أخبرتها بذلك قالت : ما أحسبه إلا قد صدق ، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص).

وما أروع أن يكون المسلم إنساناً عظيماً في بيته وعند أهله ، قبل أن يكون كبيراً في أعين الناس ،

فهذا هشام بن عروة يصرح بمكانة والده العلمية والعملية فيقول : " العلم لواحد من ثلاثة : لذي حسب يزين به حسبه ، أو ذي دين يسوس به دينه ، أو مختلطٍ بسلطان يتحفه بنعمه ويتخلص منه بالعلم . ولا أعلم أحداً أشترطه لهذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز " .

وأثمر العلم النافعه في قلب وسلوك أبي عبد الله عروة رحمه الله تعالى برودة

يقين عبر عنها بخلقين عظيمين ، إنهما الصبر والشكر . جاء في « البداية والنهاية » أن فساداً قد ألم برجل عروة ، فاضطر إلى قطعها ، ووقع في هذه الليلة التي قطعت فيها رجله أن توفي أحب أبنائه إليه محمد بن عروة ، فدخل الناس على عروة يعزونه ، فقال : " اللهم لك الحمد ؛ كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة ، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت فقد عافيت " .

ونقل ابن كثير عن الأوزاعي قوله : " لما نشرت رجل عروة قال : اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى سوء قط ، وأنشد - والأبيات لمعن بن أوس -:

لعمْـركَ مـا أهويـتُ كفـي لريبـةٍ ولا حملتنـي نحـو فاحـشة رجلـي
ولا قـادني سـمعي ولا بـصري لهـا ولا دلنـي رأيـي عليهـا ولا عقلـي
ولـست بمـاشٍ مـا حييـتُ لمنكـرٍ مـن الأمـر لا يمـشي إلا مثلـه مثلـي
ولا مـؤثرٌ نفـسي علىـذي قرابـة وأوثـرُ صـيفي مـا أقـام علـى أهلـي
وأعلـم أنـي لـم تـصبني مـصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتىً مثلي

وكان رحمه الله تعالى كثير الابتهال إلى الله ، يدعوه راجياً رحمته خائفاً من عذابه ، وكان يناجي ربه بهمومه وحاجاته مهما دقت وفي هذه القصة ما يوحي بهذه المعاني الكريمة التي يحتاج إليها كل مسلم : " رأى عروة رجلاً يصلي صلاة خفيفة فدعاه فقال : يا أخي ! أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك ؟ إني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح " .

وكان الإمام العظيم عروة بن الزبير يحرص على توضيح أمرين لهما آثار بليغة في السلوك :

١. ضرورة التخلق بالحلم عندما تهجم على المسلم المزعجات ، والحلم يعني ضبط النفس عند وقوع ما يثيرها والبعد عن التصرف من غير تقدير للنتائج ، وهذا التوجيه الكريم نأخذه من قول عروة : " رُبَّ كلمة ذلٍ احتملتها أورثتني عزاً طويلاً " .

٢. وجوب التمسك بفعل الخير عن رغبة في إنقاذ النفس من المهلكات والابتعاد عن الإصرار على الأخطاء ، وإن كانت من الصغائر ، لأن المصر على خطأ قد يستمرئ الوقوع في أخطاء كثيرة ، وما أعظمها نصيحة توجه الأب الرحيم إلى بنيه : " إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات ؛ فإن الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على أختها "

ونختم بخلق الكرم الذي كان أصيلاً في عروة رحمه الله ، ومن ذلك أنه كان إذا دخل حائطه - بستانه - ردد هذه الآية : { **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله** } [الكهف : ٣٩] . وكان أيام الرطب[١] يثلم حائطه - يفتح فتحة في جدارب بستانه - للناس فيدخلون ويأكلون ، فإذا ذهب الرطب أعاده .

[١] **الرطب : ما نضح من البُسر قبل أن يصير تمراً .**